المدّ في القرآن الكريم
دراسة سيميائية تطبيقية

الأستاذ المساعد الدكتور
كمال عبد الرزاق العجيلي
الجامعة المستنصرية – كلية التربية الأساسية

Al-madd (Lengthening) in the Quran
An Applied Semiotic Study

Assis. Prof. Dr.
Kamal Abdul-Razzaq Saleh

ملخص البحث

يتناول هذا البحث دراسة ظاهرة المد في القرآن الكريم بوصفه علامة خطية دالة تفضي الى حزمة من الدلالات عبر حضورها الصوتي وأثره في استكناه المعنى، ولّما كان الرمز الخطي (علامة المد) تتمظهر شكليّاً في الكتابة وترسم فوق الحروف في أعلى الكلمة ،فقد صار لزاماً الوقوف على احتمالية ظهورها بوصفها مؤدّى ً يكتنز بالدلالة علما بأنَّ المد ينتج في لغتنا العربية من التقاء أصوات المد (الألف والواو والياء) بصوت الهمزة في كلمة واحدة فيسمى المد المتصل ،أو في كلمتين متجاورتين فيسمى المد المنفصل ، ويتفرعان الى جملة من المدود تحكمها اشتراطات معينة بحسب ورودها في الآيات القرآنية.

وقد توصّل البحث الى وجود صلات وثقى بين أنواع المدود والمعاني التي خرجت اليها نظراً لكونها علامات تنتظم بنظام صوتي وخطيله محمولاته الخاصة ، ودراسة هذا النوع من الظواهر سيميائياً لابد أن يكون مجال تطبيقه في القرآن الكريم على الرغم من كون ظاهرة المد شاءعة في اللسان العربي لاسيما في الشعر والغناء.

الكلمات المفتاحية: المدّ، القرآن الكريم، السيمياء.

Abstract

This study approaches al-madd (lengthening) phenomenon in the Quran as a sign that produces significances through its vocal presence. Al-madd appears at the top of the (al-alif) ، and it is formed by pronouncing al-madd letters or al-madd vowels (al-alif، al-wāw and al-yā') with al-hamza in one word to be called the joined madd ، or in two words to be called the separated madd . These two madds are divided into a group of madds.

This research study established connections among different kinds of madds and the meanings that are produced from this phenomenon in the Quran in particular. It is noteworthy that the madd phenomenon has been popular not only in the Quran but also in poetry and songs .

المقدمة

يعد الاقتصاد من المجالات التي يجب أن تولي لها أي دولة أهمية قصوى حيث أنه سيحدد مدى قدرة الدولة على الاستمرار، لاسيما وان اغلب أسباب عدم الاستقرار السياسي في الدول تعود إلى أسباب اقتصادية، وفي نفس الوقت فإن عدة الاستقرار السياسي لا بد أن يترك أثره على عجلة النمو في الدولة، وهنا نكون أمام علاقة تأثير وتأثر بين السياسة والاقتصاد فكل منهما يؤثر بالآخر ويتأثر به.

لعل ظاهرة المد من الظواهر الصوتية التي تكاد تتفرد بها لغتنا العربية من دون سائر لغات العالم ، و هي بلا شك ظاهرة تتناول جوانب التلاوة و الانشاد ، اي تلاوة القرآن الكريم و انشاد الشعر العربي ، و تعد التلاوة اوسع مجالاً و اكثر استخداماً و تفريعاً للمد و المقصود هنا ان هذه الظاهرة الصوتية وجدت لها في القرآن الكريم مجالاً اوسع مما هي عليه في الشعر العربي و سيتضح ذلك في دراستنا هذه لاحقاً .

و حروف المد ثلاثة : الألف و الواو و الياء ، بشرط ان تسبق بحركات تجانسها ، فالألف يلزم سبوقها بالفتحه ، نحو : قَال ، و الواو يلزم ان تسبق بالضمة ، نحو : يقُول ، و الياء يجب سبوقها بالكسره ، نحو : قِيل ، و إن انعدم التزام هذه الحركات المجانسه امتنع اعتبارها اصوات مدٍ و تكون حينئذٍ اصوات لين ، نحو : خَوف ، بَيت ، فالواو و الياء هنا حرفا لين لكونهما لم يسبقا بحركةٍ تجانس صوت اي منهما .

و المد لغةً : هو الزيادة ، كما في قوله تعالى ((يُمددكُم رَبُّكم)) (آل عمران ١٢٥) و المقصود بالزيادة هنا الزيادة بالصوت ، أي إطالة الصوت ، أي مد الصوت بالحرف [١] ، و هذا ما لاحظناه في الامثله المذكورة أعلاه التي تندرج ضمن ما عرف لاحقاً بالمد الطبيعي او الاصلي .

و قد توافق علماء التجويد على تقسيم المد الى اصلي و فرعي ، او طبيعي و متصل و منفصل و عارض للسكون ، و حددوا الفرق بين الطبيعي و سواه بما يعرض له من همزٍ او سكون . و يلزمنا هنا ان نشير الى ان ثمة فرقاً بين صوت المد بالحرف و اشباع الحركة و هذا

نلمسه بوضوح في الانشاد الشعري الذي يتكئ بعضه على المد الطبيعي و غالبه على اشباع الحركة ولاسيما في الروي ، ففي قول المتنبي :

عِيدٌ بأَيَّةِ حـــــالٍ عُدْتَ يا عيـــــــــــــــــدُ

بمـــــــــــــا مضى أَمْ بِأمرٍ فيـــــــــكَ تجديدُ (٢)

فالمد الطبيعي ظاهر في (عيدٌ، حال، يا، عيدُ، بما، مضى، فيكَ، تجديدُ) اما إشباعُ الحركة فهو ظاهرٌ في إشباع صوت الضم في (عيدُو، تجديدُو) فإشباع الحركة هنا قد يوهم بأن في هذا الموضع مداً طبيعياً ، و إنما هو إشباعٌ اقتظته ضرورة الروي ، و هكذا الحال في سائر رويّ ابيات القصيده هذه و سواها عند كل الشعراء بأي صوتٍ كان ، و هذا احمد شوقي في رثائه عمر المختار يقول :

رَكَزُوا رُفاتَكَ في الرّمال لِـــــــــــــــــواءَ

يَستنهضُ الوادي صباحَ مَســــــــــــــــــــاءَ(٣)

فالقصيده كما هو واضح همزيةٌ مُحَرَكةٌ بالفتح ، و نظراً لحاجة الشاعر الى مد الصوت بالرويّ أشبعَ حَركة الفتح فبدت و كأنها صوتُ الف يطول بها الصوت بعيداً الى حيث يشاء الشاعر و هو يلقي قصيدته ، و هنا ظهر ما يعرف بـ (ألف الاطلاق) ، و من ذلك ايضا قول المتنبي :

صِلَةُ الهجر لي و هَجرُ الوصـــــــــــــــــــالِ

نَكَساني في السُّقمِ نُكسُ الهـــــــــــــــــــلالِ(٤)

فالرويّ هنا لامٌ مكسورة لجأ الشاعر الى إشباع كسرتها إشباعاً لرغبته في اطالة الصوت في الانشاد ، و إن استعانَ احياناً بالإضافة الى ياء المتكلم ،كما في قوله :

فَغَدا الجسمُ ناقصـــــــــــــــــاً ، و الذي ينقُصُ

مِنهُ يزيـــدُ في بلبـــــــــــــــــــالي

فياء المتكلم هنا أغنت الشاعر عن إشباع حركة الكسر و اتاحت له مداً طبيعياً يريحه من اشباع الحركه ، و لعل في الأمثلة المذكورة دليلاً على اضطرار الشعراء الى الإشباع من دون تكلف لأنه ينسجم مع ايقاعية الانشاد الشعري ، لذا اوردنا امثلةً لإشباع الضم و الفتح و الكسر لكي ندلل على أن استخدام المد في الشعر العربي اقتصرعلى حشو البيت من دون

الرويّ في الغالب الأعَم الا ما ندر و لا سيما في استحضار الشاعر الضمائر كواو الجماعة و ياء المتكلم و غيرهما في الرويّ ليحقق المد الطبيعي المتاح له هنا.

اما في القرآن الكريم فقد حظي موضوع المد بعناية كبيرة عند علماء التجويد المتقدمين و المتأخرين على السواء ، فوضحوا و عللوا و قسموا و بالغوا بالتقسيم و اكثروا من المصطلحات و التعريفات ، و لكنهم لم يعيروا اهتماماً كبيراً بالمَد الطبيعي و ركزوا جل عنايتهم باقسام المد الاخرى كالمتصل و المنفصل و غيرهما مما سيلي توضيحه لاحقا .

وحددوا مقدار المد الطبيعي بحركتين ، والحركة عندهم مدة رفع الاصبع ثم بخفضه يتم حساب زمن حركتين بشرط عدم المبالغة في الاسراع أو الابطاء أو التوقف أثناء الرفع أو الخفض ، و بهذا القياس وضعوا لكل مد من المدود حده الزمني و اتخذوا من حركة الاصبع معياراً لذلك .

والقسم الاخر من اقسام المد هو المد المتصل و سمي متصلاً نظراً لاتصال سبب المد باحد حروفه الثلاثة و يحدث هذا المد في لفظة واحدة ، اي ان حرف المد و حرف الهجاء الذي يسبقه و الهمزة التي تتبعه تقع في كلمة واحد ، و يمد بمقدار ست حركات ، من ذلك قوله تعالى ((وأمّا السائلَ فَلا تَنهَرْ))(سورة الضحى) و مثل قوله تعالى ((ومنْ يَعملْ سُوءاً أو يظلمْ نفسَهُ ثُم يَستغفرْ الله يجدْ الله غفوراً رحيماً))(النساء ١١٠) و مثل قوله تعالى ((ومنْ يَكسبْ خَطيئةً أو اثماً ثم يرمِ به بَريئاً فقد احتملَ بهتاناً و اثماً مُبيناً))(النساء ١١٢) . فقد جاء المد المتصل في الكلمات (السائلْ ، سوءاً ، خطيئةً ، بريئاً) حيث جاءت الهمزة في الكلمات المذكورة بعد حروف المد الثلاثة وبذا تحقق فيها مايعرف بالمد المتصل ، ومن اللطيف هنا ملاحظة موقع الهمزة إذ إنها لو جاءت قبل حرف المد نحو : أادم ، لتحقق فيها المد الطبيعي .

أما المد المنفصل فيتحقق بوجود حرف المد في كلمة والهمزة في كلمة أخرى مثل قوله تعالى : ((إنّا أعطيناكَ الكوثرَ)) (الكوثر١) ، و قوله تعالى ((قالوا إنّا أُرسلنا إلى قومٍ مجرمين)) (الحجر٥٨) ، وقوله تعالى ((إنّي أرى ما لا ترون)) (الانفال٤٨) ، ومقدار المد المنفصل من حركتين الى ست حركات جوازاً بحسب مقتضى المعنى.

اما المد العارض فيكون بسبب سكون عارض بعد حرف المد ولاسيّما عند الوقف مثل قوله تعالى ((بلِ الذين كفروا في عِزَّةٍ و شِقاق)) (ص٢) و مثل قوله تعالى ((إنَّ رَبَّنا

لَغفورٌ شَكور))(فاطر٣٤) ومثل قوله تعالى ((الحمدُ للهِ ربِّ العالمين)) (الفاتحة١) ، و المد العارض للسكون مسموح فيه الاختيار في مقادير المد و عدد الحركات بحسب اصول الوقف القرآني جوازاً او وجوباً او امتناعاً . و اذا لم يكن السكون عارضاً بعد حرف المد فيكون حينئذ ما يُعرف بالمد اللازم ، من ذلك قوله تعالى : ((وَوَجَدَكَ ضالاً فَهدى)) (الضحى ٦) ، فالمد اللازم هنا حاصل في لفظ "ضال" لأن سكون اللام هنا هو سكون بناء ، فاللام المشدّدة هي عبارة عن حرفين اولهما ساكن و جاء سكونه بعد الف المد ، و هذا السكون ليس عارضاً بل لازمٌ لكونه تأصل في اللام و لا شأن له بالوقف و غيره ، ويُلحق بهذا المد الحروف المقطعه التي تُفتتح بها السور القرآنية مثل (ألم) في افتتاح سورة البقرة و تُلفظ (ألفْ لامْ ميمْ) ، و (ألمص) في افتتاح سورة الاعراف و تُلفظ (ألفْ لامْ ميمْ صادْ) . و ثمة مدٌ آخر عُرفَ بمد اللين و هو أن يؤتى بأحد حروف المد الثلاثة على ان يُسبقَ بفتح كما في قوله تعالى : ((لإيلافِ قريشٍ ،إيلافِهم رحلةَ الشتاءِ و الصَّيف ، فَلْيعبدوا رَبَّ هذا البيتِ ، الذي أطعَمهُم من جوعٍ وآمَنَهُم من خَوْف)) ، فمدُ اللين حاصلٌ في كلمات (قُرَيْش ، ألصَّيْف ،البَيْت ، خَوْف)[٥] .

ومما تقدم نلاحظ أن هذه التقسيمات و التفريعات – مما ذكرناه و مما اغفلنا ذكره – تشير بوضوح الى عمق هذا الموضوع و تشعبه و سعته من جهة ، و تنوع امده و زمنه في حركاته من جهة اخرى ، و هذا التنوع الزمني الحاصل في تغير حركات المدود من حركتين الى ست ،شجعنا على دراسة هذا المتغير الزمني وفق المنظور السيميائي ، فالمتغيرات هنا متغيرة يصيبها الطول و القصر ، أي طول مدة اطالة الصوت بالحرف او تقصيره ، و هنا نكون إزاء متغيرات صوتية تتم بوساطة الخط ، والمقصود بالخط هنا تلك العلامة التي تعتلي الحرف لتدل على وجود المد في هذا الموضع أو ذاك ، ويرى المهتمون بدراسة الأصوات (أن الخط لا يستطيع حمل الشحنة الإنفعالية التي يؤديها فعل النبر أو استطالة الصوت او ارتفاعه و انخفاضه اثناء النطق و كذلك السمات العروضية و شبه اللغويه كالاشارات باليد او بتقاسيم الوجه او باشياء اخرى)[٦] ، و عليه فإننا لا يمكننا – بحسب هذا الرأي – ان نثق بفاعلية الخط و جدواه في الابانة عن معاني النصوص و دلالات الفاظها ، و بذا ندرك احقية بعض علماء التجويد في حصر اسباب حدوث المد بسببين : معنوي و لفظي ، فالمعنوي هو قصد المبالغة في النفي في

مثل (لا ريب فيه) و منه مد التعظيم في نحو (لا اله الا الله) ، و اللفظي هو ما جرى مده بسبب الهمزة و السكون [٧] و لكن اغلب علماء التجويد لم يعيروا اهتماماً بالسبب المعنوي ، و هذا ما شجعنا على خوض غمار هذا الموضوع مسترشدين بشواهد كثيرة من كتاب الله .

و سنتعامل هنا مع المد بوصفه علامة دالة وهي بطبيعة الحال اشارة لها دلالة ، و بحسب كونديك فإن اللغة الاشارية هي اللغة الاصلية كالحركات و ملامح الوجه و نبرات الصوت ، و إن الانساق السيميائية غير اللسانية كانت العمليات الأولى التي اصطنعها الانسان في تبليغ افكاره و تحقيق التواصل مع محيطه .[٨] ثم يأتي دور العلامة اللسانية بوصفها حاملة للفكر و قادرة على احضار ما هو غائب لتمثيل الداخل (الفكر) بواسطة (الخارج) . [٩] و بذا يكون المد في (لا اله الا الله) هو مدٌ لتعظيم نفي الشرك ، فكما ان التوحيد يستوجب تعظيما فان اداءه بالالفاظ و العلامات المصاحبة لحروف هذه الالفاظ يستوجب هو الآخر عناية كبيرة لنخلص في نهاية الأمر الى الوقوف على حقائق المعاني .

و اذا تأملنا راي الدكتور ابراهيم انيس في تعليل ظاهرة المد إذ يقول : " اما السر في هذه الاطالة فهو – كما يبدو لي – الحرص على صوت اللين و طوله ، لئلا يتأثر بمجاورة الهمزة او الادغام لأن الجمع بين صوت اللين و الهمزة كالجمع بين متناقضين ، إذ الأول يستلزم ان يكون مجرى الهواء معه حرا طليقاً ، و ان تكون فتحة المزمار حين النطق به منبسطة منفرجة ، في حين ان النطق بالهمزة يستلزم انطباق فتحة المزمار انطابقاً محكما يليه انفراجها فجأة ، فإطالة صوت اللين مع الهمزة يعطي المتكلم فرصة ليتمكن من الاستعداد للنطق بالهمزة التي تحتاج الى مجهود عضوي كبير و الى عملية صوتية تباين كل المباينة الوضع الصوتي الذي تتطلبه اصوات اللين " [١٠] ، نقول : اذا تأملنا هذا الرأي بدقة نُدرك مدى الجهد الذي يبذله الجهاز الصوتي عند الانسان من اجل اظهار المد و اعطائه حقه من الإطالة او القصر ، و عليه نجد من المستحسن البحث عن دلالات هذا المد بوصفه متغيراً صوتياً له مقاديره المتنوعة التي اجتهد علماء التجويد في تحديدها و إن ايقنوا في آخر المطاف ان مقادير المدود التي حددوها ما هي الا مقادير تقريبية ، و هذا لا يمنع بطبيعة الحال من استقصاء دلالات المدود بطولها و قصرها و امكانية استجلاء المعاني . ولما كانت السيمياء (هي طريقة في رصد المعنى وتحديد بؤره

ومظانه) ، [١١] نجد من المناسب الإستعانة بها لاستجلاء الإمكانات التي تتيحها المدود في إظهار المعنى وتوكيده والربط بين عناصره .

ولابد من الاشارة الى ان الآيات القرآنية لا تحتوي كلها على هذه المدود بل نجد كثيراً من الآيات تخلو تماما منها الا من المد الطبيعي الذي لن يكون محورا في دراستنا هذه ، من ذلك مثلا آيات سورة الاخلاص و الفلق و الناس ، فإن هذه الآيات تخلو من انواع المدود الفرعية و إن كانت لا تخلو من المد الطبيعي بوصفه مدا اكثر سعة و انتشاراً نظراً لعدم اشتراطه بوجود همزٍ او سكون ، وفي سورة الكوثر تُفتتح بمدٍ منفصل في قوله تعالى ((إنّآ أعطيناك الكوثر)) و تتبين هنا دلالة المد المنفصل على كثرة العطاء و طول امده ، ثم يأتي قوله تعالى ((فَصَلِّ لِرَبِّكَ و انحرْ، إنَّ شانِئَكَ هو الأبْتر)) حيث انعدم وجود المدود بشكل يكاد يكون تاماً إلا المد الطبيعي في كلمة "شانئك" ، و لعل انعدام المد هنا خطاً و لفظاً جاء ليلقي الأضواء على المد في أول الآيات بوصفه كاشفاً للمعنى و مختصراً الدلالات البليغة التي من أجلها قصرت الآيات و تكثفت الألفاظ ولم يُترك فيها مجالٌ لمد الأنفاس بل تُرك النفس طليقاً او شبه ذلك في مفتتح السورة ، و لأن الآيتين التاليتين للمفتتح جاءت اولاهما طلبية (فَصلِّ) و الأخرى خبرية مؤكدة بمؤكدين (إن ، ضمير الفصل "هو") ، و لعل خلو هاتين الآيتين من المد جاء هو الآخر لضرورة المعنى و توكيده و تقريره في نفس القارئ ، و هذا ما نلحظه كذلك في الاخلاص و الفلق و الناس حيث خلت سورة الاخلاص من المد بشكل عام إلا في كلمة "يولد" وهو هنا مدٌ طبيعي ولاشك ، إذ إن موضوع التوحيد يستلزم جُملاً متراصة متعاضدة منسجمة حتى في الطول و القصر لتبدو بذلك اقوى دلالة و أكثر تعبيراً لتتجلى اهمية المعنى و لتقوي مكانة التوحيد في نفوس العباد ، و نجد مثل ذلك في سورة الفلق و سورة الناس حيث يتوجه الاهتمام الى اهمية المعنى و اولوياته من دون الانشغال بمد الصوت ، ولكلٍ ضرورته و حاجته .

ونجد خلاف ذلك في سورة (الكافرون) التي زخرت بالمدود بالرغم من قصرها ، إلا أن موضوع التوكيد هنا يفرض اهميته مرة اخرى ، ففي السورة ست آيات تحتوي الخمس الأولى منها على سبعة مدود و تخلو منها الآية الاخيرة (لكم دينكم و لي دين) و كأن تقرير هذه الحقيقة لا يستوجب إطالة الصوت بل يتطلب جملةً مكثفةً من حيث اللفظ و مضغوطة من حيث تلاؤم اصواتها و منسجمة من حيث تناسق كلماتها

لكم.....لي

دينكم.....ديني

و كلمة (ديني) وردت هي الأخرى بالآية مضغوطةً حيث حذف منها ياء المتكلم و أستعيض عنه بكسرة تحت النون بل إن هذه الكسرة لا يُنطق بها عند الوقف بل ينطق بسكونٍ فوق النون ، و ذلك لمراعاة الفاصلة القرآنية انسجاماً مع الفواصل السابقة لها، و مديات تكثيف المعنى و الجملة و الأداء التي لاحظناها في هذه الآية تختصر دلالة الآيات الخمس السابقة في قوله تعالى ((قل يا أيهآ الكافرون ، لآ اعبدُ ما تعبدونَ ، ولآ انتم عابدون مآ اعبد ، ولآ انا عابدٌ ما عبدتم ، ولآ أنتم عابدون مآ اعبُد ، لكم دينكُم ولي دينِ)) ، لان الجدل الطويل اقتضى كلاماً طويلاً استدعى تنوعاً في طبيعة التراكيب حيث وردت جملة فعلية واحدة (لا أعبد) و ثلاث جمل اسمية (ولآ أنتم عابدون)، (ولآ أنا عابدٌ)، (ولآ أنتم عابدون)، ليدل على اصرار الكافرين على كفرهم و عدم ايمانهم بالرسالة المحمدية ، و دلت الاية الاخيرة على ثبات كل فريق على اعتقاده متحديا الاخر . و قد ساعدت المدود على توكيد هذا المعنى و توثيقه وصولا الى حتمية التناقض الحاد بين الايمان و الكفر، وقد اكدت المدود على هذا التناقض ، بل انها ساعدت في وجوده على الرغم من تساويها في مقدار الحركات ، فالمدود الواردة في كل الآيات هنا من نوع المد المنفصل وسببه الهمز الوارد بعد الألف و مقدار كل منها ست حركات ، ولكن حدث تضاد في دلالة هذه الآيات ، فالآيتان الثانية و الرابعة الخاصتان بالتوحيد : ((لآ أعبدُ ما تعبدون)) و ((ولآ أنا عابدٌ ما عبدتم)) ورد فيهما تركيبان مختلفان بعد المد ، ففي الأولى جملة فعلية و في الثانية اسمية و تضمنت الآيتان مدَّين فقط ، اما الآيتان الثالثة و الخامسه الخاصتان بالشرك : ((ولآ أنتم عابدون مآ أعبد)) و ((ولآ أنتم عابدون مآ أعبد)) فقد ورد فيهما تركيب واحد بعد المد متمثلٌ بالجملة الأسمية (انتم عابدون) ، فقد تكررت التراكيب نفسها في الآيتين بجملتين اسميتين ثم جملتين فعليتين بعد المدود الاربعه الواردة في الآيتين الكريمتين ،و قد ارجع بعض المفسرين العدول من الجملة الفعلية الى الجمله الاسمية لضرورة الحاجة الى الاحاطة بالزمن و استيعابه في الماضي و الحال و الاستقبال ، اي ان محمداً (صلى الله عليه و سلم) يبرأ من شركهم و معبوداتهم في الزمن الماضي و الزمن الحاضر و الزمن المستقبل [١٢]، و قد اسهم المد في توكيد ثبوت المشركين على

شركهم و اصرارهم على التزام جانب الكفر و ذلك بمضاعفة عدد المدود ، اذ لاحظنا وجود مدين فقط في كل من الآيتين الثانية و الرابعة و اربعة مدود في كل من الآيتين الثالثة و الخامسة في حين خلت الآية السادسة التي اشرنا اليها سابقاً من المدود بوصفها متضمنة القول الفصل في حسم نتيجة هذا الصراع الذي ادى الى وجود هذا التضاد، وقد شكل تكرار النفي بـ (لا النافية) دعامةً رئيسةً في صنع هذه المدود و هذا التضاد حيث تكررت اربع مرات ، و ارى ان تكرارها هذا جاء مصحوباً بتنوع دلالي اوجبه التضاد ، و صحبه تكرار (ما الموصولة) التي تنوعت دلالتها هي الأخرى و اسهمت في انتاج هذا التضاد الذي تأكد هو الآخر بتنوع جمل صلة الموصول (تعبدون ، اعبد ، عبدتم) و لكن تكرار (ما) هنا جاء بمعنيين ، للعاقل و لغير العاقل ، فالايتان اللتان تختصان بالتوحيد وردت فيهما (ما) للدلالة على العاقل ، في حين وردت في الآيتين الخاصتين بالشرك بالدلالة على غير العاقل ، و يرى الدكتور فاضل السامرائي ان (ما) تقع على ذوات ما لا يعقل وعلى صفات من يعقل [١٣]، و هي اوسع استعمالا من (مَنْ) و اكثر ابهاما منها فهي تقع على كل شيء كما يرى سيبويه [١٤]، و يرى ابن القيم في بدائع الفوائد ان (ما) "لا تخلو من الابهام ابداً ولذلك كان في لفظها الف اخرة لما في الألف من المد والاتساع في هواء الفم ، مشاكلة لاتساع معناها في الاجناس ، فإذا اوقعوها على نوع بعينه و خصوا به من يعقل و قصروها عليه ، ابدلوا الألف نوناً ساكنةً فذهب امتداد الصوت فصار قصر اللفظ موازناً لقصر المعنى" [١٥] ، و هذا بلا شك رأي مهم ومبكر من علمائنا وهو يدعم ما ذهبنا اليه في دراستنا هذه من وجود صلة وثقى بين صوت المد والمعنى، اي ان الصوت هنا يمتلك ايحاءات سيميائية إشارية ، وكما يبدو فإن السياقات كلها هنا محكومة بتكرارعناصر محددة تضافرت فيما بينها لكي تكون بنيات اشارية ترسخ التضاد من خلالها . فالمدود الواردة في هذه السورة اقترنت ب(لا النافية) و (ما الموصولة) و لكنها وردت مع (لا النافية) اكثر من ورودها مع (ما الموصوله) ، حيث تكرر المد مع لا النافية اربع مرات :

- لا اعبد ما تعبدون ← النفي متبوع بجملة فعلية ← خاصة بالبراءة من الشرك
- ولا انتم عابدون ما اعبد ← النفي متبوع بجملة اسميه ← خاصة بالشرك
- ولا انا عابد ما عبدتم ← النفي متبوع بجملة اسميه ← خاصة بالبراءة من الشرك
- ولا انتم عابدون ما اعبد ← النفي متبوع بجملة اسميه ← خاصة بالشرك

و من هذا يتضح ان المد المصاحب للنفي المكرر بالعطف ، قد اسهم في تحقيق التناقض في دلالة النفي هنا :

لا = و≠ لا

اي ان (لا النافية) المكررة تساوت جميعها في دلالتها النحوية المطلقة على النفي ، الا انها لا تتساوى مع بعضها في المضمون المقصود بالنفي ، اي ان نفي الشرك لا يساوي نفي الأيمان بالله مع كون دلالة النفي واحدة ولكن المنفي مختلف .

اما (ما الموصولة) فقد تكررت هي الاخرى اربع مرات :

- ما تعبدون ← خالية من المد ← خاصة بمعبود المشركين
- مآ اعبد ← مصحوبة بالمد ← خاصة بالله تعالى
- ما عبدتم ← خالية من المد ← خاصة بمعبود المشركين
- مآ اعبد ← مصحوبة بالمد ← خاصة بالله تعالى

و يتضح مما تقدم ان تكرار (ما الموصولة) جاء ليؤكد تساويها في الدلالة النحوية و اختلافها في دلالتها المضمونية ، بحسب تنوع صلتها ، ففي الجملة الأولى تبعتها جملة فعلية فعلها مضارع (تعبدون) للدلالة على نفي عبادة محمد (صلى الله عليه وسلم) لمعبودهم في الحال و الاستقبال ، و في الجملة الثالثة وردت (ما) متبوعة بجملة فعلية فعلها ماضٍ (عبدتم) للدلالة على نفي عبادة محمد (صلى الله عليه وسلم) لمعبودهم في الزمن الماضي، فهو يعلن براءته من معبوداتهم في الماضي و الحال و الاستقبال .

اما في الجملتين الثانية و الرابعة فقد وردت (ما) متبوعة بصلتها الفعلية المضارعة (اعبد) الدالة على الحال و الاستقبال ، اي ان المشركين لا يعبدون الله في الزمن الحاضر و الزمن المستقبل ، و نخلص من هذا الى ان :

ما = و ≠ ما

وهذا التوافق والاختلاف حدثا وفقاً لوظيفتها النحوية من جهة وتنوع جمل الصلة من جهة أخرى ، ليؤكد مدلولاً علامياً تتحد فيه الهيأة وتتباين فيه الإشارة تبعاً لمعطيات تنتجها الجملة وتسهم في إغناء التأويل ، من ذلك مثلاً خلو الآيتين الخاصتين بمعبود المشركين من المد ووجوده في الآيتين الخاصتين بالله جل جلاله – والمقصود هنا المد المصاحب لـ (ما الموصولة

) – وفي ذلك نظرة جديرة بالتأمل ، فمعبود المشر كين مقطوع لامحالة في الدنيا ويبرأون منه في الآخرة ، فلا حاجة لإطالة الكلام ومد الصوت وإجهاد اللسان وازعاج الأسماع بالحديث عن آلهة لاتملك لنفسها ضرّاً ولانفعاً ، بل إنها ليست جديرة بالعبادة والتقديس ، أما بما يخص الآيتين الخاصتين بالحديث عن معبود محمد (عليه الصلاة والسلام) وهو الإله الواحد الأحد المعبود عبر كل الأزمنة ، وقد ورد المد في لفظ (ما أعبد) المكرر في الآيتين بصيغة المضارع ليدل على دوام العبادة لله تعالى في الحاضر والمستقبل والثبات على هذه العقيدة وتوكيد قوتها . ولانغفل هنا الإشارة الى احتواء السورة على سبعة مدود منفصلة وعشر مدود طبيعية ، ويمكن توضيحها بما يأتي:

المد	عدد مرات كراره	مجموع ركاته
المنفصل	سبعة	٤٢
الطبيعي	عشرة	٢٠

والذي قاد هذا العدد من المدود هو لفظ (قُلْ) الطلبي المفتتح لهذا التتابع من الامتدادات الصوتية ، وهو متألف من حركة وسكون ، وهو نظام الكون ، ونظام الألوهية المطلقة لله المعبود الواحد الأحد ، والإنحطاط الحتمي والزوال لكل ما سواه من معبودات أخرى ، وهو التوجيه الرباني والتعليم الإلهي لنبيه الكريم (عليه أفضل الصلاة والسلام) في إدارة هذا الحديث مع المشركين وتحديد المواقف وحسمها ، لذا جاء النفي أكثر تكراراً وأعظم توكيداً ليتحقق المراد من البنية اللغوية والصياغات التركيبية ، وقد لاحظنا بوضوح من خلال تحليلنا الإجرائي هذا أن حركة الزمن (عبر تنوع الأفعال) تزامنت سيميائياً مع حركة المد و أعطى كلٌ منهما دعمه للآخر ، فتكرار المد هنا تزامن مع تكرار الأفعال و هي بتنوعها تشكيلات للفعل الثلاثي (عبدَ) ، ونقصد بالتشكيلات هنا الصوتية و الزمنية و هي على إختلافها ترجع الى منبع واحد هو الفعل المذكور (عَبَدَ) .

و نجد مثل هذا النوع من التضاد الذي اسهمت المدود في دلالته في سورة النساء في قوله تعالى: ((إنَّ المنافقين يخادعون اللهَ و هو خادِعُهم و إذا قاموا إلى الصلاةِ قاموا كُسالى يُرآؤنَ الناسَ ولا يذكرونَ اللهَ إلّا قليلاً ، مُذْبْذَبِينَ بينَ ذلك لآ إلى هؤلآءِ ولآ إلى هؤلآءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلن تَجِدَ لهُ سَبيلاً)) النساء (١٤٢-١٤٣)

تتعرض هاتان الآيتان الى ذكر صفات المنافقين : -

- يخادعون الله .
- واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى
- يراؤن الناس
- لا يذكرون الله الا قليلا
- مذبذبين

والمنافق هو الذي يظهر لسانه خلاف مافي قلبه ، فيكون لسانه مع قوم وقلبه مع غيرهم ، أي أنهم لا يستقرون على جانب واحد ، وأوجز لفظ (مُذَبذَبين) حالة عدم الاستقرار هذه ، فالمنافقون لا يقر لهم قرار ، فهم - كما يرى ابن جني – (يخِفّون تارةً الى هؤلاء وتارةً الى هؤلاء) [١٦] ، وهو مشتق من الفعل الرباعي المكرر (ذبذب) ، على صيغة اسم المفعول ،وقد ورد في قراءة ابن عباس وعمرو بن فايد بكسر الذال الثانية (مُذَبذِبين)[١٧] ، أي بصيغة اسم الفاعل ، وأرى أن استعمال اسم المفعول هنا أقوى أثراً في المعنى من اسم الفاعل ، لأنّ التجانس الصوتي الحاصل من تكرار صوتَي الذال المفتوحة والباء المتغيرة أحدَثَ جِرساً يُوجب تساوي النبر بتعاقب الحركة والسكون في المرة الأولى (ذَ – بْ) و توالي الحركتين (ذَ- بِ) ، فالتجانس الصوتي أحكَمَ وثاقهُ الذال المفتوحة المكررة المنسجمة صوتياً مع الباء المكررة المتغيرة بالحركة ، ولأنّ المنافقين – كما يرى الزمخشري – : (ذبذبهم الشيطان و الهوى بين الايمان و الكفر ، فهم مترددون بينهما متحيرون...) [١٨] ، وقد لخص هذا اللفظ تلك الحيرة والتردد ، وشفعه القرآن بما يدعم معناه ويكمل صورته ، بظرف المكان المبهم (بين) الذي يدل على ملموس مادي تحول الى محسوس معنوي ، (بين ذلك) ثم يسنده بدعامة أخرى (لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء) ، وهنا يظهر المنافق بأوضح صوره :

هؤلاء ------/ ----- المنافق -------/ ---- هؤلاء

↓ ↓

المؤمنون الكافرون

ويبرز المد بوصفه عنصراً سانداً للمعنى (لآ إلى ◌ ه ؤلآء .. ولآإلى .. هؤلآء)

بستة مدود : أربعة منها متصلة في لفظ (هؤلآء) المكرر ، ومدّان منها منفصلان في (لآ إلى) المكرر ، وهذا الامتداد الصوتي أتاح وقتاً مناسباً لتأمّل المسافة الشاسعة الفاصلة بين المنافقين وبين المؤمنين والكافرين ، تلك المسافة الواصفة لتذبذبهم وحيرتهم وامتناع استقرارهم ، وهذا – بلا شك – مثّل رسماً بيانياً للعوامل النفسية المتناوبة التي ينتج عنها التردد ، والتي آزرها هذا العدد الكبير من المدود المتركز بكثافة في ألفاظ قليلة ، حيث وردت ستة مدود حاشدة ستاً وثلاثين حركة مثّلت بؤرة المعنى الذي حرصت الآية على تمظهره بكثافة ، في حين خلت الآية السابقة من هذا التكثيف المدّي ، ولم يرد فيها المد إلّا في : (وإذا قاموآ إلى الصلاة) وفي : (يرآؤن) ، وفي كلا الموضعين يظهر المد بوصفه داعماً فعّالاً في إظهار صفات المنافقين:-

- وإذا قاموآ إلى الصلاة --- فهم لا يحرصون على الصلاة .. وإذا قاموآ إليها ، قاموا كسالى ، (أي يقومون متثاقلين متقاعسين، كما ترى من يفعل شيئاً على كره لا عن طيبة نفس ورغبة) [١٩]
- يرآؤن الناس ---- يظهِرون خلاف مايضمِرون ------ أي إنهم يصلّون أمام الناس ولا يصلّون بغياب الناس ---- لذا فهم لا يذكرون الله إلّا قليلا .

والملاحظ هنا أنَّ هذين المدّين أوضحا حجم النفاق الظاهر في سلوك المنافقين وسعة التردد الكامن في نفوسهم وهم يتظاهرون بالايمان ومتابعة المسلمين بطقوسهم ولكنهم لا يؤدّون تلك الطقوس إلّا بكسل وتباطؤ .

وقد تكثف النص القرآني للدلالة على اتقان صورة المنافق ، وتضافرت العناصر اللفظية والخطية والعلامية لرسم الملامح كاملة من دون نقص يذكر ، ولاسيما الجانب السلوكي العاكس لمكنونات النفس البشرية ، وقد بدأ هذا التحديد تنازلياً بدءاً من مخادعتهم لله جل جلاله نزولاً الى ريائهم وخداعهم الناس .

وقد أدى اسم الاشارة دوراً جوهرياً في تحقيق المعنى بما يحمله من شحنات سيميائية فاعلة وقادرة على دعم البنية التصويرية في النص ، ولكن اسم الاشارة (هؤلاء) اتخذ وجهين مختلفين بصيغة واحدة ، ذلك أنه ورد مرتين في عبارة واحدة: (لآ إلى هؤلآء ولآ إلى هؤلآء)

ولكن (هؤلآء) الأولى لا تساوي (هؤلآء) الثانية سيميائياً ، وإنْ كانت تماثلها خطّيّاً بكامل جزئيّاتها الصوتية واشتمالها على مدَّين متصلين ، وحملها الوظيفة النحوية نفسها بالدلالة

الإشارية والبنية الإعرابية والموقع الإعرابي ، وسبب اختلافهما سيميائياً يكمن في مرجعية كلٍّ منهما ، فالأولى قُصد بها المؤمنون ، والثانية قُصد بها الكافرون .

هؤلآء = و ≠ هؤلآء

هؤلآء (اسم اشارة) = هؤلآء (اسم اشارة)

هؤلآء (المؤمنون) ≠ هؤلآء (الكافرون)

ولما كان التضاد لا يتضح جلياً في الأولى فإنه يبدو واضحاً في الثانية ، مع كونهما لا تخرجان عن إشاريّتهما في الحالين ، وهما تشيران الى القريب من جماعة الذكور والإناث على حد سواء ، والإشارة منهما للبعيد تكون بـ (أولئك) ، فلم يقل : لا الى هؤلاء ولا الى أولئك ، أي لم يقرن بين البعيد والقريب في الاشارة ، ليضع المنافقين على مسافة واحدة من الطرفين ، فهم منافقون لكلا الطرفين بحساب المنطق ، نظراً لعدم استقرارهم على حال .

والتكرار الذي لاحظناه في لفظ (مذبذبين) نجده بصورة أخرى في لفظ (يضلل) من الفعل الرباعي المضعّف (أضَلَّ) ومضارعه (يُضِلُّ) وفُكَّ تضعيف اللام بسبب دخول اسم الشرط الجازم (مَنْ) لإظهار علامة الجزم (السكون) على اللام ، ثم ليبدل السكون بالكسرة لالتقاء الساكنين ، ولكون هذا اللفظ خالياً من المد ربما فك تضعيفه وجرى ماجرى عليه من تلوينات صوتية ، كأنّ ذلك كله عوّضَ عن المد الخطّي بالمد الحرفي ، أي بتمدد أحرف الكلمة وانسياقها خلف مديات صوتية جديدة :

أضَلَّ -------- يُضِلُّ ------يُضِلْلُ ------ يُضْلِلْ ------ يُضْلِلِ

والصيغة الأخيرة أوجزت خلاصة التغيرات الصوتية الحاصلة على الفعل بتأثير الجازم من جهة والحذر من التقاء الساكنين من جهة أخرى ، ولعل لذلك كله تأثيراً في عظم حجم الضلالة التي أصابت المنافقين عقاباً من الله متواصلاً (فلن تجد له سبيلا) ، حيث إفادة (لن) نفي الزمن المستقبل ، وهذا مادعمته ألف الإطلاق في (سبيلا) الممتد بها الصوت عند الوقف ، مع سلسلة اللامات المرققة في (يُضْلِلِ اللهُ) و (لن) و (سبيلا).

ولفظ (يضلل) وما يشتق منه (الضلال ، الضلالة ، الضالين ، المضلين ....) هو لفظ يتلاءم بقوة مع لفظ (المنافقين) ، بوصفه سمة ملازمة ، وهذه السمة ينعدم وجودها عند المؤمنين المتصفين بالهداية والرشاد ، وعليه فإنَّ هذا النص نهض على فاعلية التضاد بسبب بنية

علامية اشتركت فيها مجموعة من العناصر شكَّلت المدود جزءاً رئيساً منها ، ليتحقق الغرضان الإيقاعي والدلالي إذ (إننا نفترض أن العقل البشري ينظم اللغة بصورة إيقاعية توفر التوازن بين عناصر الكلام من حيث الموسيقى والمعنى فلا يظهر في الجملة عنصر مستقل بل كل عنصر يستدعي عنصراً آخر ، إمّا لتحقيق تعادل إيقاعي أو لتحقيق تعادل معنوي وفي الغالب التعادلين معاً) (٢٠).

وفي موضع آخر نقرأ في سورة المائدة قوله تعالى (يآأيّها الذين آمنوا لا تَتّخذوا اليهودَ والنصرى أولياآء بعضهم أولياآء بعض ومن يَتَوَلَّهُم منكم فإنَّهُ منهم إنَّ اللهَ لا يهدي القومَ الظالمين) (المائدة ،٥١) .

نلاحظ بوضوح فاعلية المد في إظهار هذا التضاد ، ولاسيما في لفظ (أولياآء) المكرر في الآية والمفصول بعلامة الوقف (لا تتخذوا اليهود والنصرى أولياآء) ، والوقف هنا جمع لفظَي (اليهود والنصارى) تحت لفظ (أولياء)، إذ إنّ الله نهى المؤمنين عن موالاتهم ثم قال بعد الوقف (بعضهم أولياء بعض) ، فتوسط المد بينهما:

بعضهم --------- أوليآء ---------- بعض

↓ ↓

اليهود النصارى

إذ إنَّ : بعضهم = اليهود ، وبعض = النصارى

أي إنَّ : بعضهم ≠ بعض

ومع اختلافهم في الدين جمعهم الله بالموالاة ، ويظهر المد بوصفه جسراً صوتياً ممتدّاً بين الفريقين ليؤكد تقاربهم وتواصلهم وبالتالي اجتماعهم تحت هذا اللفظ (أوليآء) ، وبعد تحقق التضاد بينهما تحقق تضاد آخر في قوله : (ومن يتولَّهم منكم فانه منهم) :

منكم (المؤمنون) ≠ منهم (اليهود والنصارى)

ويبدو هنا أنّ هذا هو موضع التضاد الرئيس في الآية :

أنتم ≠ هم

وترتب عليه تضاد آخر في قوله تعالى : (إنَّ اللهَ لا يهدي القوم الظالمين) ، فالهداية للمؤمنين والضلالة لمن خالفهم وظلم نفسه منهم . [٢١] وقد تكثّف المد في لفظ (أوليآء) وهو مدٌّ متصل مقداره ست حركات ، تكرر بتكرار اللفظ ، ولكنّ الآية لم تعتمد على هذا المد بمفرده – بالرغم من أهميته – بل ثمة مدٌّ ابتدأت به الآية في نداء المؤمنين في قوله تعالى : (يآأيها الذين آمنوا) بمدٍّ منفصل مقداره ست حركات ، ثم تبعه مدٌّ طبيعي مقداره حركتان ، وتبعه مدٌّ آخر في لفظ (آمنوا) وهو مد منفصل مقداره ست حركات ، ولكن هذه المدود كلها لم تؤدِّ الأثر الصوتي نفسه الذي يؤديه المد في لفظ (أوليآء) ،

ونجد أنموذجاً آخر في سورة طه في قوله تعالى : (فَلَنَأتيَنَّكَ بسحرٍ مثلِهِ فَاجْعلْ بيننا وبينك موعداً لا نُخلفُهُ نَحنُ ولآ أنتَ مكاناً سوى) (طه ،٥٨)

لا نخلفه ---------- نحن ---------- ولآ ---------- أنت

فالنفي يطوّق الجملة ويحكم هيمنته عليها ويدخل في إطار محدد من التضاد :

نحن ≠ أنت

↓ ↓

فرعون موسى

واشترك المد مع النفي في إظهار التضاد الشاسع بين فرعون وموسى ، وقد أغنت الضمائر عن ذكرهما ، وفي آية أخرى تتلوها قال تعالى : ((قالوا يا موسى إمّا أنْ تُلقيَ وإمّا أنْ نَكونَ أوّلَ مَنْ ألقى)) (طه ،٦٥)، والكلام هذه المرة على لسان سحرة فرعون ، والتضاد هنا معكوس باختلاف طرفيه :

إمّآ أنْ تُلقي (أنت) ≠ وإمّآ أنْ نكون (نحن)

والطرفان هنا متضادان غاية التضاد، إذ إنَّ موسى يمثل الطرف المؤمن بكل المدد الإلهي ، في حين يمثل فرعون وسحرته الطرف الكافر بكل الغطرسة والتكبر ،والمد في (إمّآ أنْ) أسهم في بيان سعة البعد بين الطرفين بكل ما يحملان من مرجعية اعتقادية ، ففي الموضع الأول تقدم المتكلم (نحن) وتأخر المخاطب (أنت) ، لأن فرعون لم يزل بكامل قوته وثقته بنفسه وسحرته ، فتكلم بضمير المتكلم الجمعي (نحن) إشعاراً بعظمته وكبريائه ، وتأخر المخاطب إشعاراً بضعفه ، أمّا في الموضع الثاني فقد تأخر ضمير المتكلم الجمعي (نحن) في (نكون) بعد أن اهتزت ثقة فرعون بقدرة سحرته على هزيمة موسى ، وتقدم ضمير المخاطب (أنت) في (تُلقي) بعد إحساسه بقوة موقفه وتعاظم ثقته بمساندة الله تعالى له ، ولعل في هذا إشارة بليغة وبالغة الأهمية الى سيميائية التوظيف القرآني للضمائر ، وقد تضافرت معها المدود لإقامة بنية إشارية تتواشج فيها حزمة من المثيرات السيميائية يتمخض عنها المعنى ليبلغ مرتبة الإعجاز ، ولعل من المفيد الإشارة الى دلالة ذكر الضميرين (نحن) و (أنت) في الموضع الأول وأستتارهما في الموضع الثاني ، وفي ذلك نظر وتأمل ، لان الضمير (نحن) استتر أصلاً في الفعل (لا نخلفه) ثم تم ذكره ظاهراً للتوكيد ثم عطف عليه وجيء بضمير المخاطب معطوفاً بعد نفي معطوف ، وفي النص طرفان :

- أنا = نحن = فرعون / الحاكم المطلق
- أنت = موسى / العبد الفقير المرسل من الله تعالى رب موسى وفرعون

أمّا في الموضع الثاني فقد استتر ضمير المخاطب في :

إمّا أنْ تُلقي ----- تُلقي : فعل مضارع وفاعله ضمير مستتر وجوباً تقديره (أنت)

واستتر ضمير المتكلم الجمعي في :

وإمّا أنْ نكون --- نكون : فعل مضارع ناقص واسمه ضمير مستتر وجوباً تقديره (نحن)

واستتارهما هنا لم يصاحبه أي توكيد لأيٍّ منهماً ، بل ظهرت الحاجة الى وجود التوكيد حين برزت الأنا العليا المضخمة على لسان فرعون ، وتوسّط المد بين الضميرين ليبين فرعون استعلاءه وليحط من قدر فرعون فانقلبت الآية في الموضع الثاني كما أوضحنا في حينه ، بعد لغة التحدي (فَلَنأتِيَنَّكَ بسحرٍ مثله فاجعلْ بيننا وبينك موعداً لا نُخلفُهُ ...) ، ونظراً لاختلاف الفريقين صار لكل منهما مكانه :

بيننا (نحن) ≠ وبينك (أنت)

واختلف المكان (بين) تبعاً لاختلاف الموقع الاجتماعي – بحساب فرعون – ولاختلاف الموقع الايماني – بحساب موسى عليه السلام ، ومن هنا جاء تنوع الضمائر :

بين ا نا ≠ بين ا ك

جماعة مفرد

فالجماعة يتحدَّون واحداً ، ولولا وجود هذا الاختلاف لما استوجب الامر هذا الفصل المتكرر في الضمائر في الآيتين المذكورتين ،وعلى النحو الآتي :

- فلناتينك – كَ ، فاجعلْ – أنت مستتر ، بيننا – نا ، بينك – كَ ، لانُخلفهُ – نحن مستتر ، نحن ، أنت .
- قالوا – واو الجماعة ، تُلقي – أنت ، نكون – نحن مستتر .

وبذا تتضافر عدة عناصر في إظهار حركية الصراع بين الايمان والكفر ، والحق والباطل، والخير والشر ، لخصتها الضمائر بظهورها واستتارها لتتكامل ثنائيات الصراع التي ارتكز عليها النص القرآني في هذه المواضع ، وهي عناصر متضادة بطبيعتها وتأكد تضادها من خلال التحليل السيميائي صوتياً وتركيبياً ، ويزخر كتاب الله العزيز بثنائيات كثيرة يتمثل فيها التضاد بوضوح [٢٢] ، ليتبين لنا في ما بعد وبنظرة فاحصة (أن التضاد قد هيمن على كل مفاصل الخطاب القرآني وهذه الهيمنة كانت قائمة على الترداد والتنوع باستخدام الصيغ المباشرة وغير المباشرة وقد امتدت هذه الهيمنة الى تشكيل الصورة الفنية ، فهو آلية للحدس الفني الجمالي الاستدلالي) [٢٣] .

وفي سورة يوسف نجد أنموذجاً آخر في قوله تعالى : ((وجآءوا أباهم عِشآءً يبكون . قالوا يآأباناآ إنّا ذهبْنا نستبقُ وتركْنا يوسفَ عندَ متاعِنا فَأَكَلَهُ الذئبُ ومآ أنتَ بمؤمنٍ لنا ولو كُنّا صادقين ...)) يوسف ١٦، ١٧ .

يظهرأمامنا في هذا النص فريقان : أخوة يوسف وأبوهم ، وبينهما صراع جوهري نشأ منه تضاد بين الأنا والآخر / هم – هو ، فقد مكروا ليأخذوا أخاهم ويذهبوا به ويغيّبوه وهاهم يمكرون ليجدوا عذراً يقنعون به أباهم ، فجاءوا خائفين من رد فعل أبيهم ، فتباطأت خطواتهم وتأخروا في المجيء الى وقت العشاء ، وأظهر المد ذلك التباطؤ وتلك الرهبة العارمة الجاثمة على قلوبهم ، فلم يتكلموا بل سبقهم فعل البكاء (يبكون) ليضفوا صبغة ميلودرامية على المشهد ثم انطلقت ألسنتهم : (قالوا – ياأبانا – إنّا – ذهبنا – نستبق –وتركنا – متاعنا – لنا – كنا – صادقين) بصيغة الجمع وكأنهم نطقوا بصوت واحد وفي وقت واحد لكي يحدثوا الأثر المطلوب ، ويتكرر الفعل الماضي (جاء) ثلاث مرات :

*وجآءوا أباهم – بمدّين متصل ومنفصل

*وجآءوا على قميصه – بمدّ متصل واحد

*وجآءت سيارة – بمد متصل واحد

الذي يصور ترددهم وقلقهم وخوفهم ، هذا في الموضعين الأول والثاني ، أمّا في الموضع الثالث فقد أكد المد على طول الزمن الذي قضاه سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام ، في الجب ومدى صعوبة الأمر عليه لولا العناية الإلهية التي تكفلت برعايته والتخفيف عنه .ولابد هنا من الإشارة الى أنَّ الفعل (جاء) ورد في الموضعين الأول والثالث بمعنى أتى، وهو معنى شائع كثير التداول ، أما في الموضع الثاني فقد ورد بمعنى (وضعوا) بحسب مايفهم من كلام الزمخشري في تفسيره ، [٢٤] أي وضعوا على قميصه دماً كذباً .

والملاحظ هنا هيمنة الضمائر الدالة على الجمع بشكل واضح ، لان اخوة يوسف هم صانعو هذا المشهد وأبطاله ، والمنتفعون منه ، ومدى إتقانهم لأدوارهم أوضحه المد بأداء صوتي تزامن مع حركة الأحداث وتسارعها أو تباطئها خلال القص القرآني ، وظهر التضاد لا بوصفه بنية سطحية تشكل الإطار الخارجي للصورة والحدث ، بل بوصفه بنية عميقة تتشكل

منها مجريات الأحداث خلال السرد ، وبذا شكّل قانون الصراع بمستويات أدائية عالية مجمل أركان القص وتمّ – كما أسلفنا – بفاعليات متعددة مثّلَ المد أحدها .

***

أشارت النصوص القرآنية المذكورة بوضوح الى حقيقتين سيميائيتين تتلخصان في ما يأتي :

١- ثمة عناصر خطّيّة تمّ تناولها في اغلب الدراسات الصوتية القديمة والحديثة بصفتها اصواتاً مجرّدةً من الدلالة ، من دون التأكيد على مايمكن أن تحمله من طاقة مؤثرة في إغناء المعنى واستكناه مديات ذلك التأثير ، ولعل المد يأتي في مقدمة تلك العناصر بوصفه صوتاً وُضِعتْ له محددات موضعية وموضوعية خاصة وفق قواعد معينة ثم وُضِعتْ له علامة مخصصة تهدي القراء الى معرفة تلك المواضع ومقدار كل موضع منها بمقياس الحركة .

ومن تلك العناصر أيضاً الإدغام والتضعيف والتنوين والإمالة وغيرها من الظواهر الصوتية التي عولجت صوتياً ولم تتم معالجتها سيميائياً بحسب متغيراتها وثوابتها وبحسب تنوع مواضعها وتعدد أشكالها وانسجامها أو عدمه مع كل التغيرات النصية والدلالية .

٢- إنَّ المدود لاتعمل بمعزل عن مفاصل النص الأخرى وجزئيات موضوعة بدقة مع سائر العناصر البنائية صوتياً وتركيبياً ودلالياً بحيث يتهيأ للنص إخراج كنوزه للباحث المستدل على النص بوساطته (النص) ، ولا شأن هنا للمعجمية اللفظية ولا للتفسير اللغوي أو السطحية في التأويل أو الدوران حول المعنى ، بل تتآزر هذه العناصر مجتمعة لترويض المعاني المستغلقة أو لتفتيت الدلالة لتسويغ تجميع المغزى وإن كان جليّاً كي يزداد وضوحاً وثبوتاً ، لأن تضافر البنى لا يتيح مجالاً – ولو يسيراً – لتشظي المعنى ثم انصراف الذهن الى تفريعات لا جدوى ترتجى منها .

١- اتضاح الفرق بين الإشباع والمدّ أدّى الى انحياز كلٍّ منهما الى جانب أكثر من الآخر ، وبتعبير أدقّ فقد شاع توظيف الاشباع في الشعر بصورة تبدو لا إرادية في أغلب الأحيان حتى كادت تتمظهر بوصفها سلوكاً أدائيّاً يتخذ ألوانه الصوتية عند الشعراء ولاسيما أثناء الإنشاد الذي يتطلب القراءة الجهرية بصوت مسموع لأكبر عدد ممكن من المستمعين ، وبخلافه اختص المدّ – بأنواعه – بالقرآن الكريم فاعتنى به علماء التجويد عناية كبيرة، إلّا أنهم اقتصروا –

في الأعم الأغلب – على الدراسات الصوتية وأهملوا تماماً – أو كادوا – دراسة الأبعاد الدلالية التي يمكن ان يخرج اليها المد هنا أو هناك في هذه الآية أو تلك ، ولا نبالغ إذْ نشدّد على أهمية التحليل السيميائي للمدّ ودراسة تغيراته الصوتية والكمية .

هوامش البحث ومصادره

١-ينظر ، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ، د . عامر قدوري الحمد ، ص : ٥٢٢

٢- شرح ديوان المتنبي ، عبد الرحمن البرقوقي ، ٢/ ١٣٩ .

٣-الشوقيات : احمد شوقي ، ٣/ ١٥ .

٤-شرح ديوان المتنبي ، البرقوقي ، ٣/ ٣٠٩ .

٥- ينظر تفاصيل هذه المدود وأقسامها وأمثلتها في : قواعد التجويد والالقاء الصوتي ، الشيخ جلال الحنفي البغدادي ، ص: ٧٥ ومابعدها .

٦-السيمياء العربية ، صلاح كاظم ، ص: ١٧٢ – ١٧٣ .

٧-ينظر ، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ، ص: ٥٢٦.

٨-السيميائيات الواصفة ، أحمد يوسف ، ص:٦٩ .

٩- نفسه ،ص ٥٣

١٠-الأصوات اللغوية ، ابراهيم انيس ، ص١٥٩-١٦٠

١١-السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها ، سعيد بنكراد ، ص ٥٢ .

١٢-ينظر تفصيل ذلك في ، الأعجاز الصرفي في القرآن الكريم ، د.عبد الحميد احمد يوسف هنداوي ، ص١٧٠ وما بعدها

١٣-معاني النحو ، د. فاضل صالح السامرائي ، ١/ ١٢٠، وينظر المحيط في أصوات العربية و نحوها وصرفها ، محمد الأنطاكي ، ٣/ ٢١٢

١٤-كتاب سيبويه ، ٢/ ٣٠٩

١٥ -بدائع الفوائد ، ابن القيم ، ١/ ١٣١ .

١٦-المحتسب ، ابن جني ، ١/ ٣٠٨

١٧-ينظر نفسه ،١/ ٣٠٨

١٨-الكشاف ،الزمخشري ١/ ٥٨٠

١٩-نفسه ، ١/ ٥٧٩

٢٠- في التوازن اللغوي (المعادل الايقاعي والمعنوي) ، د. مصطفى الجوزو ، مجلة الفكر العربي المعاصر ، ع ٦٨، ١٩٨٩، ص١٠٣.

٢١- ينظر الكشاف،الزمخشري ، ١/ ٦٤٢.

٢٢- ينظر أمثلة أخرى للثنائيات المتضادة في القرآن الكريم ، التضاد في الخطاب القرآني : نضال عبد الجبار حسوني الخفاجي ، ص: ٢٣ وغيرها .

٢٣ – نفسه : ص ٢٦.

٢٤- ينظر : الكشاف ٢/ ٤٥١.

مصادر البحث

١-القرآن الكريم
٢-الأصوات اللغوية : د. ابراهيم أنيس ، ط٤ ، مكتبة الأنجلومصرية ، القاهرة ، ١٩٧١
٣-الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم : د. عبد الحميد أحمد يوسف هنداوي ، المكتبة
٤-العصرية – بيروت ، ٢٠٠٨ .
٥-بدائع الفوائد : ابن قيم الجوزية ، دار الكتاب العربي ، بيروت .
٦-التضاد في الخطاب القرآني ، دراسة أسلوبية : نضال عبد الجبار حسوني الخفاجي ، اطروحة دكتوراه مقدمة الى قسم اللغة العربية –كلية التربية للبنات – جامعة بغداد ، ٢٠١٠.
٧-الدراسات الصوتية عند علماء التجويد: د. عامر قدوري الحمد ، ط١ ، بغداد ، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الدينية ، ١٩٨٦.
٨-السيمياء العربية ، بحث في أنظمة الإشارات عند العرب : صلاح كاظم ، ط١ ، بغداد ، ٢٠٠٨ .
٩-السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها ، سعيد بنكراد ، دار الحوار للنشر والتوزيع ، سورية ، ط٢، ٢٠٠٥ .
١٠-السيميائيات الواصفة ، المنطق السيميائي وجبر العلامات : أحمد يوسف ، الدار العربية للعلوم ، منشورات الاختلاف ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٥ .
١١-شرح ديوان المتنبي : عبد الرحمن البرقوقي ، دار الكتاب العربي ، بيروت .
١٢- الشوقيات : أحمد شوقي ، راجعه وضبطه، د. يوسف الشيخ محمد البقاعي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ٢٠١٠ .
١٣- في التوازن اللغوي (المعادل الايقاعي والمعنوي) ، د. مصطفى الجوزو ، مجلة الفكر العربي المعاصر ، ع ٦٨ ، ١٩٨٩ .
١٤- قواعدالتجويد والالقاء الصوتي : الشيخ جلال الحنفي البغدادي ، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الدينية ، بغداد ، ١٩٨٧.
١٥- كتاب سيبويه، مصور على طبعة بولاق ، نشر مكتبة المثنى ، بغداد .
١٦- الكشاف : جار الله الزمخشري ، دار الكتاب العربي ، بيروت .
١٧- المحتسب ، في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ، أبو الفتح عثمان بن جني ، دراسة وتحقيق ، محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٨ .
١٨- المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها : محمد الأنطاكي ، مكتبة دار الشرق ، بيروت .
١٩- معاني النحو : د. فاضل صالح السامرائي ،شركة العاتك لصناعة الكتاب ، القاهرة .